العرب
الإثنين 2021/05/24
السنة 43 العدد 12068

الدراما القديمة تُؤنس التونسيين في رمضان وخارجه

المسلسلات السابقة المعاد بثها تتفوّق على الأعمال الجديدة

مسلسل «حرقة» مثّل الاستثناء بتطرقه إلى المشكلات الاجتماعية الراهنة

يحل موسم الدراما الرمضانية ويرحل ومعه عدد من الأعمال الدرامية والكوميدية التي تراهن على "اللمّة العائلية" (اجتماع أفراد العائلة) طوال شهر بأكمله لكسب نسب مشاهدة عالية وللتأثير في عقل المشاهد كي تعيش ضمن يومياته أطول وقت ممكن، فيستفيد القائمون عليها بارتفاع أجورهم في العام الذي يلي موسم الدراما الرمضانية. لكن الحال في الساحة الفنية التونسية يبدو مختلفا قليلا، فالمسلسلات القديمة ظلت منذ سنوات تتربّع على عرش الدراما وتستحوذ على عقل المشاهد والساعات التي يقضيها أمام التلفزيون وعلى الإنترنت.

حنان مبروك
صحافية تونسية

تونس – انتهى الموسم الدرامي لرمضان هذا العام منذ أيام قليلة، لكنه كالموسم الذي سبقه سلّط الضوء على ظاهرة حديثة رسمت المشهد العام للدراما في تونس، حيث انصب اهتمام المشاهد التونسي على المسلسلات التلفزيونية القديمة على حساب الإنتاج الخاص برمضان 2021، مختارا بذلك السفر في رحلة حنين نحو ماض جميل ينسيه واقعه العصيب.

ورغم أن التلفزيون الرسمي التونسي خصص قناته الثانية منذ سنوات لإعادة بث أكثر المسلسلات التونسية شهرة إلاّ أن التونسيين، ورغم تكرار عرض تلك الأعمال القديمة، لا يملون من إعادة مشاهدتها العديد من المرات.

نوستالجيا محبّبة

نجحت القناة "الوطنية الثانية" (عمومية) للعام الثاني على التوالي في تصدّر نسب المشاهدة بسبب إعادة المسلسلات الرمضانية القديمة التي لاقت استحسانا كبيرا في صفوف التونسيين، وتكثر تعليقات مستخدمي وسائل التواصل الاجتماعي على الصفحة الرسمية للقناة بموقع فيسبوك المطالبة بمواصلة الإعادات وتحديد توقيت بثها حتى أنه صار شبه متحكم في برمجتها.

معاذ بن نصير

التمثلات الاجتماعية سبب إدمان التونسيين على الدراما القديمة

فيصل بالزين

الأعمال الجديدة تطوّرت فنيا، لكنها فشلت في تجميع العائلة

وتواصل القناة على سبيل المثال برمجة سلسلة "شوفلي حل" الكوميدية التي تتضمن ستة أجزاء وبثت منذ حوالي 15 عاما. ورغم إعادتها على مدار العام إلاّ أنها تتصدّر نسب المشاهدة في تونس، كما تُعيد القناة عرض مسلسلات أخرى نذكر منها "الخطاب على الباب" الذي بث منذ حوالي ربع قرن، ومسلسل "جاري يا حمودة" الذي عرض لأول مرة سنة 2004، ومسلسل "الدوار" (1992) ومسلسل "صيد الريم" (2008)، ومسلسل "عودة المنيار" (2005) و"قمرة سيدي المحروس" (2002) والعشرات من الأعمال الأخرى.

وأسهمت إعادة بثّ المسلسلات القديمة في تعرّف الجيل الجديد على القائمين على هذه الأعمال وأحيت ذاكرة مبدعين تونسيين صوّروا بكاميراتهم شوارع تونس وطباع سكانها وحكاياتهم، كالمخرجين صلاح الدين الصيد وعبدالقادر الجربي وحمادي عرافة والحبيب المسلماني وغيرهم. كما خلّدت أيضا أسماء موسيقيين تونسيين لحنوا الموسيقى التصويرية للمسلسلات، ومنهم الملحن التونسي الطاهر القيزاني وربيع الزموري وآخرون.

ويفسّر الممثل التونسي فيصل بالزين إقبال التونسيين على الأعمال الدرامية القديمة بأنها منتوج قادر على تجميع العائلة بكافة أفرادها وبجميع فئاتها العمرية لمُشاهدة هذه الأعمال دون حرج.

وبالزين هو ممثل كوميدي يعرفه عامة التونسيين بأسماء الشخصيات التي جسّدها في المسلسلات الرمضانية، ومنها شخصية "قميّر" أو "سطيش" في مسلسل "الخطاب على الباب" وشخصية "عزيّز" في مسلسل "منامة عروسية" و"فوشيكة" في سلسلة "شوفلي حل" الكوميدية.

ويرى الممثل التونسي أن الأعمال الدرامية الحالية شهدت تطوّرا ملحوظا على مستوى الصورة والسيناريو والأداء التمثيلي والتقنيات. لكنها غفلت عن أهم جانب لنجاح العمل وهو قربه من المشاهد وقدرته على جمع العائلة في مساحة واحدة والتي أصبحت مشتتة ولا تجتمع إلا في ما ندر.

وبالفعل فإن الإنتاج الدرامي في التلفزيون الوطني وإن شهد بعض الهنات في مواسم رمضانية سابقة إلاّ أن هذه المؤسسة التي تمتلك حقوق الملكية الفكرية لكافة الأعمال الدرامية القديمة منذ تسعينات القرن الماضي سرعان ما تداركت الأمر في العامين الماضيين بإنتاجين دراميين لقيا استحسان الجمهور والنقاد وهما "المايسترو" و"حرقة" وكلاهما من إخراج الأسعد الوسلاتي.

ومن الأعمال الدرامية الحديثة التي تم إنتاجها في سنوات ما بعد 2011 التي هبّت بحلولها رياح التحرّر على كل القطاعات قد يتذكّر التونسي مسلسلات بعينها، لكنه يربطها بظواهر ينفر منها المجتمع ويحاول محاربتها ويرى فيها مسلسلات تشوّه الجمال المتبقي من الواقع ولا تنقل صورة مثيرة عنه وإن كانت صورة عن ظواهر مجتمعية موجعة.

ويستنكر التونسي على المسلسلات الحديثة جرأتها في طرح الموضوعات "المحرّمة" سابقا وتحرّرها من القيود المجتمعية والفنية التي لطالما قيّدت كتاب السيناريو في ما مضى، ورسمت توجهات المخرجين وزوايا طرحهم وتناولهم للقصص الدرامية أو حتى الكوميدية.

وخلال الموسم الدرامي لرمضان 2021 وردت على الهيئة العليا المستقلة للاتصال السمعي البصري "الهايكا" أكثر من أربعة آلاف شكوى تعلقت بمضامين المسلسلات التلفزيونية.

ولا يخوّل القانون التونسي للهايكا ممارسة الرقابة على المصنفات الفنية وحرية الإبداع الدرامي، فهي "هيئة تعديلية" تتدخّل في حال رصد انتهاكات أو تجاوزات.

مقارنات موضوعية

يوضّح الباحث في علم الاجتماع معاذ بن نصير في تصريحه لـ"العرب" أنه في كل عام، وتحديدا مع حلول الموسم الدرامي الرمضاني وفي الفترة التي تليه، تتصاعد نغمة النوستالجيا المعتادة، حيث ينشغل متابعو المسلسلات التلفزيونية بالحديث عن إنتاجات الماضي السعيد والماضي البسيط وكيف كانت المسلسلات قريبة من قلوب التونسيين وعقولهم على حد السواء، فيستحضر المُشاهد أغلب عناوين المسلسلات وأهم الشخصيات ويحاول عقد مقارنات ذاتية وجماعية بين أعمال الماضي والحاضر.

ووفق تحليل بن نصير ما يساعد على تفاقم هذه الحال عاما تلو آخر هو أن دراما المنزل، أو ما يطلق عليه مُسمّى الدراما العائلية، لم تعد رائجة جدا؛ فقد أصبحت الموضوعات أكثر حدة وسرعة، وصار طابع الإثارة والتشويق محرك اللعبة الإنتاجية والعملة المسيطرة في سوق الدراما. كما يرى أن مشاهد العنف سيطرت على الفعل الدرامي بتعلّة "هذا ما تطلبه السوق"، فمنطق الربح والخسارة والتسويق ساد على عقول المنتجين، وبذلك سرعان ما تصبح الأعمال الرمضانية الجديدة في طي النسيان.

ويرى الباحث التونسي أن حنين التونسيين إلى الأعمال الدرامية السابقة هو نوع من الهروب من واقع الدراما الحالية المعقد، فعلينا الإقرار بأن "الحياة نفسها اختلفت، فلم تعد بالبساطة التي كانت تتّسم بها الحياة في التسعينات أو الثمانينات من القرن الماضي. ولو نظرنا إلى الحبكات التي تدمع عيوننا الآن تأثرا عندما نتذكّرها لأدمعت عيوننا أيضا ولكن من فرط الضحك، فالبساطة التي يمكنك تسميتها بالسذاجة بضمير مستريح كانت تأسرنا تماما".

ويرى بن نصير في تصريحه لـ"العرب" أن الأجيال السابقة ومن تجاوزت أعمارهم الثلاثين عاما قد اختاروا العودة بالذاكرة إلى ماضيهم والزمن الجميل عبر مشاهدة الأعمال الدرامية السابقة.

فحالة النوستالجيا التي تسيطر بكثرة على التونسيين منذ نحو عامين سببها حالة القطيعة التي يعيشها التونسي اليوم مع واقعه الاجتماعي والاقتصادي، والحنين إستراتيجية نفسية للهروب من الحاضر والغوص في الماضي الذي يبدو جميلا ومبهرا بصوره وحكاياته وأغانيه ومنوعاته وأحيائه (معماره) وعلاقاته الاجتماعية العميقة والبسيطة في الآن نفسه.

ويوضّح بن نصير أن التمثلات الاجتماعية التي يستحضرها الفرد عن الشخصيات والقيم والمفاهيم هي سبب إدمانه على الأعمال القديمة؛ فبمشاهدة صور الشخصيات البسيطة التي نجد أشباها كثيرة لها في أغلب المناطق التونسية الشعبية، وكذلك صور أزقة الحي والبطحاء والحومة (الحارة) وخصائصها، ترتسم سوسيولوجيا أغلب العلاقات الاجتماعية في سنوات التسعينات.

ولأجل ذلك يقوم من يشاهد أحد هذه الأعمال بإسقاط الحالة الدرامية على نفسه ويشعر بالشبه بينه وبين تلك الشخصيات ووجوده في تلك الحومة أو الحي (بروائح البخور التي تعبق فيه وضحكات الشخصيات التي تقطنه وعلاقاتها الاجتماعية المتماسكة)، فحتى العلاقات الدرامية في هذه الأعمال كانت ركيزتها التضامن والحب والتعاون والتآخي، وهي معان فُقدت حاليا في ظل مبدأ الفردانية الذي سيطر على النسيج المجتمعي.

كما يعتبر الباحث التونسي أن عمق السيناريوهات في الماضي هو ما جعل هذه الأعمال تعيش إلى اليوم مقارنة بالأعمال الحالية التي تعيش لمدة سنة على أقصى تقدير، مضيفا "أن الأعمال الدرامية الحالية تشتغل على الصورة لا على المضمون عكس الأعمال القديمة التي تصب اهتمامها على المضمون والمحتوى، ونحن ندرك جيدا أن مضمون العمل لا صورته هو من يأخذ حيزا ضمن ذاكرة المشاهد التي تثير حنينه إلى ذكريات زمن مضى أو إلى حالات تثير عاطفته".

وخلال الموسم الرمضاني للعام 2021 راج في تونس مسلسل "حرقة" للمخرج الأسعد الوسلاتي، والذي رأى فيه التونسيون صرخة تعبّر عن وجع الآلاف من العائلات التي فضّل أبناؤها الهجرة غير النظامية عبر قوارب الموت على البقاء في وطن لم يعد يتّسع لأحلامهم.

وبناء على كل ما سبق يبدو أن الدراما التونسية ستكون في السنوات القليلة القادمة أمام تحدّ كبير لمحاولة جذب المشاهد وإقناعه بأهمية متابعتها كي تضمن العيش في ذهنه أكثر ممّا تعيش بين رفوف الأرشيف فيلفّها غبار النسيان.

ألمانيا تعوّض غيابها عن الأوسكار باقتحامها سوق السينما الأميركية

برلين – تعدّ السينما الألمانية واحدة من أقدم السينمات في العالم فقد بدأت بالعرض للمرة الأولى في العام 1895، وتميزت عبر تاريخها بالسينما التعبيرية الألمانية التي ازدهرت في عشرينات القرن الماضي، إلى جانب الموجة الألمانية الجديدة. لكن حضور هذه السينما في سوق السينما الأميركية، التي تعدّ من أبرز الأسواق العالمية، ظل محتشما، الأمر الذي جعل القائمين على ترويج السينما الألمانية يسارعون بفتح مكتب الفيلم الألماني بنيويورك.

وعنه تقول سارة ستيفنسون رئيسة مكتب الفيلم الألماني، الذي تم افتتاحه مؤخرا في نيويورك، "لمدة عامين متتاليين لم تشهد مسابقة الأوسكار مشاركة أي فيلم ألماني، وهذا في حد ذاته ليس بالجديد ويحدث كثيرا، ولكن أصبح يتعيّن علينا أن نغيّر هذا الوضع القائم".

وتقول ستيفنسون إن "الأفلام الألمانية لا تعرض دائما في دور السينما الأميركية، رغم أنه بالطبع من المفرح أن يتم عرض واحد منها"، غير أنها تضع عينيها على جائزة أكبر، وهي الترويج للأفلام الألمانية في الولايات المتحدة، وتشجيع عرضها في دور السينما بمختلف الولايات الأميركية.

وعندما يفكّر معظم الأميركيين في السينما الألمانية، يرد على خاطرهم عادة ثلاثة مخرجين فقط، هم رينر فيرنر فاسبندر وفيرنر هيرتزوج وفيم فيندرز، وتوفي فاسبندر بينما دخل المخرجان الباقيان في السبعينات من العمر.

ويهدف مكتب الفيلم المدعوم من وزارة الخارجية الألمانية والمفوّض الثقافي الاتحادي بألمانيا، إلى بيع الأفلام الألمانية إلى المنتجين الأميركيين، ليس فقط الإصدارات الجديدة. ولكن أيضا الأفلام الألمانية الكلاسيكية، والأعمال الأكثر قدما ذات القيمة التاريخية.

وتقول ستيفنسون إن مدينة نيويورك هي المكان المناسب لافتتاح المكتب، حتى لو كانت هوليوود والساحل الغربي الأميركي هما أول ما يرد على الأذهان.

وتوضّح أن "موزّعي الأفلام في الولايات المتحدة يتركزون في نيويورك، ممّا يعني أن الأمور المهمة بالنسبة للسينما الألمانية تحدث هناك".

وتستدرك قائلة "ذلك لا يعني أن لوس أنجلس ليست ذات أهمية تامة بالنسبة للأفلام الألمانية، ولكن بالنسبة لأوضاع تسويقها للمشترين الأميركيين، فإن نيويورك هي المكان الصحيح".

وتم تدشين مكتب الأفلام وسط جائحة كورونا، ممّا جعل الأمور أكثر صعوبة أمام التسويق، حيث اضطرت دور السينما إلى إغلاق أبوابها لفترات طويلة، غير أن ستيفنسون استطاعت أن تنجز الكثير من العمل عبر شبكة الإنترنت، بالإضافة إلى وجود اتجاه لتكريس هذا الانتشار عبر دور سينما السيارات.

وتوضّح أن الأمور أصبحت الآن أفضل بكثير، بعد السماح لدور السينما بأن تعيد فتح أبوابها بالتدريج أمام الجمهور، كما توجد إمكانات لعرض الأفلام في الهواء الطلق.

وتؤكّد ستيفنسون أن السوق الأميركية مهمة للأفلام الألمانية، وتقول "إنها ليست أكبر سوق لها، حيث توجد هذه الأيام بالطبع فرص جديدة وربما أكبر في مناطق أخرى من العالم، مثل آسيا على سبيل المثال أو أميركا اللاتينية".

غير أنه على الصعيد التقليدي تعد الولايات المتحدة سوقا كبيرة، كما أنها مهمة من الناحية الرمزية، وفي هذا الصدد تقول ستيفنسون "إذا استطعت الحصول على موطئ قدم هنا كمخرج لأفلام ألمانية، فسوف تحقّق نجاحا مشهودا".

وتضيف إنها مع ذلك سوق صعبة "وأعتقد أن الاهتمام بهذه السوق موجود وكان موجودا دائما، غير أنه لم يكن اهتماما سائدا بالطبع". وتوضّح أن الأفلام الأجنبية التي يطبع الحوار مترجما عليها لا تروق كثيرا لمعظم الأميركيين، كما يوجد الكثير من المحتوى السينمائي الجذاب المعروض باللغة الإنجليزية، وتقول "يجب على المتفرّج أن يكون مهتما بالأفلام الأجنبية لكي يشاهد أفلاما ألمانية".

وهناك مجموعة كبيرة نسبيا من المُشاهدين الذين يحبون مشاهدة السينما المستقلة، وهي الأفلام ذات القيمة الفنية العالية المختلفة عن السينما التجارية التي تروق للمتفرّج العادي، وهذه الشريحة من المتفرّجين المثقفين هي التي يسعى مكتب ستيفنسون لأن يصل إليها.

وهي ترى أن تأمين مكانة دائمة للأفلام الألمانية يعد مسألة مهمة، مؤكّدة على أهمية العمل مع شركاء محليين.

وتوضّح أن مكتب الفيلم يفحص أيضا الأفلام للتأكّد من أنها مناسبة للسوق الأميركية، وتقول "إننا ننظر بعناية فائقة إلى ملاءمة القضايا المثارة في الفيلم لاهتمامات المتفرّج الأميركي، والتأكّد من أن الفيلم المرشح للعرض لا ينتهك الحساسيات الثقافية لديه".

الولايات المتحدة تعد سوقا كبيرة ومهمة من الناحية الرمزية للترويج للسينما الألمانية وإمكانية فوزها بالجوائز العالمية

وعندما يتعلق الأمر بالتنوع والعنصرية والمساواة في الحقوق، تقرّ ستيفنسون بأن الأفلام المنتجة في الولايات المتحدة أكثر تقدمية من نظيرتها الألمانية.

وتشير إلى أن الأفلام الكوميدية يمكن أيضا أن تكون صعبة التسويق، حيث إن الفكاهة والمزاح لا يمكن أن ينتقلا من ثقافة إلى أخرى بسهولة على الدوام، وتقول "إننا نحاول الابتعاد بأفلامنا عن الأنماط الثقافية المعهودة لدى الأميركيين عن الألمان، مثل البريتزل وهو نوع من البسكويت المملح، والجعة وغيرها". وتضيف "نريد تقديم صورة معاصرة لألمانيا، وأفلام من ألمانيا".

وتم إغلاق دور السينما في نيويورك طوال عام تقريبا بسبب جائحة كورونا، وتمت إعادة فتحها مؤخرا شريطة اتباع الإجراءات الاحترازية.

وبالنسبة لأول تجربة تعتزم ستيفنسون خوضها لارتياد دار سينما في نيويورك بعد إعادة فتح أبوابها، تعرب عن اعتقادها بأنها تريد مشاهدة فيلم "أخبار العالم" (نيوز أوف ذي وورلد)، وهو فيلم حديث تدور أحداثه حول الغرب الأميركي بطولة النجم توم هانكس، وهو معروض في دار سينما قريبة من مكتبها.

كما تعرب عن اعتقادها بأن مشاهدتها لهذا الفيلم ستدعم عملها، حيث إن بطلته الممثلة الصغيرة هيلينا زينجل التي تبلغ من العمر 12 عاما، تنحدر من ألمانيا وتم ترشيحها للفوز بجائزة الغولدن غلوب عن دورها في الفيلم.

أفلام ألمانية معاصرة تواكب تطلعات المشاهد الأميركي